الكتب

موسى بن ميمون

حياته ومصنفاته

تأليف الدكتور اسرائيل ولفنسون

بقلم الدكتور ابراهيم بيومي مدكور

هنالك كتب تقرأ لموضوعها وأخرى لأصحابها ؛ وكأن منظمي المكتبات العامة أدركوا هذا المعنى تماماً فأعدوا طائفتين متميزتين من الفهارس : إحداهما للمادة والأخرى للمؤلفين ؛ والكتاب الذي نحن بصدده يجذب القراء بموضوعه وبما يبذله مؤلفه من وسائل في سبيل نشره . فهو يدرس أولاً أعظم شخصية بين مفكري اليهود في القرون الوسطى ، ومن ذا الذي لا يرغب في أن يعرف شيئاً عن ابن ميمون بعد ذلك الحفل العظيم الذي أقيم في العام الماضي تخليداً لذكراه المئوية الثامنة ؟ وأعتقد أن هذا الحفل نجح نجاحاً كبيراً ؛ فقد وجه الباحثين إلى دراسته وتعريف الناس به ، وأضحت شخصيته بعده شعبية إلى حد ما ، ولو لم يكن من آثاره إلا كتاب اليوم لكفى . وعلنا نحتذي هذه السنة الصالحة ونخلد ذكرى فلاسفة الشرق وعلمائه الآخرين كي نبعثهم من مرقدهم وننشر تراثهم ونلفت الأنظار إليهم ونحلهم في المحل اللائق بهم . وفوق هذا فإن الدكتور ولفنسون نشاط يغبط عليه ؛ وليس نشاطه في التحدث عن كتبه بأقل من نشاطه في جمعها وتأليفها ، ولا تكاد تلقاه إلا ويحدثك عن أبحاثه الماضية ومؤلفاته الحاضرة ومشروعاته المستقبلة ؛ وإذا ما ظهر له في عالم التأليف كتاب خيل إليك أنك تلمح باستمرار على وجهه السؤال الآتي : هل قرأت كتابي ؟ ولسنا ندري ماذا كان يصنع لو قدر له أن يشتغل بالأعمال المالية والشؤون الاقتصادية ! يغلب على ظننا أنه ما كان يُبارى في هذا المضمار !

ولسنا في حاجة لأن نؤكد للدكتور ولفنسون أنا قرأنا كتابه الأخير ؛ فهو يعلم أنا عُنينا به وهو لا يزال في مهده ، وقلنا بعض الشيء على تنشئته وتكوينه ، وقد ناقشناه غير مرة في طريقته وأسلوبه وموضوعه ومصادره ؛ وها نحن أولاء مسرورون بظهوره في ثوبه الحاضر سروراً مزدوجاً ، فيسرنا منه ما فيه من أبحاث قيمة أضافت إلى اللغة العربية ثروة طائلة ، ونغتبط بأن نرى فيه زهرة يانعة شهدنا من قبل ساعة تفتحها وتابعنا أدوار نموها وكمالها . وإذا كنا قد أسرعنا بالأمس إلى الدكتور ولفنسون بما لاحظناه على مخطوطته ، فنحن اليوم في حل من أن نعلن إلى قرائه ما خلفه كتابه في نفسنا من أثر ؛ والأبحاث العقلية وقف على أصحابها ما لم ينشروها ؛ فإن نشرت أصبحت ملكاً للإنسانية جمعاء

يشتمل كتاب موسى بن ميمون على تصدير ، وأربعة أبواب وفهرس بأسماء المصادر العربية والعبرية والافرنجية . ففي التصدير يبين المؤلف الأسباب التي دفعته إلى وضع كتابه ، والطريق الذي سلكه ، والصعوبات التي صادفته ، ويلخص النتائج التي انتهى إليها ؛ وفي الباب الأول يدرس حياة ابن ميمون ويأتي على الظروف المختلفة التي أثرت في نشأته وتكوين آرائه ، ويعرض في إسهاب لمشكلة إسلامه مدلياً فيها بأقوال المؤرخين السابقين ومناقشاً لها مناقشة طويلة . وهـــذا الباب حافل بالمعلومات يدل على اطلاع واسع وبحث مستفيض ، إلا أنه لم يرتب ترتيباً كافياً . وقد عنى فيه بجمع الحقائق وسردها أكثر مما عنى بطريقة عرضها وربط بعضها ببعض . وكنا نود أن يرجع المؤلف العوامل التي أثرت في حياة ابن ميمون إلى نقط رئيسية يأتي عليها الواحدة بعد الأخرى . نحن لا ننكر أن ملخصه الجامع الذي صدَّر به كل باب من أبوابه حدد بحثه بعض الشيء ؛ ولكن كنا نفضل أن يقسم هـذه الأبواب إلى فقرات يُعَنْوَن لكل واحدة منها بعنوان خاص ، كما صنع في مشكلة إسلام ابن ميمون مثلاً [1]

(١) موسى بن ميمون ، ص ٢٧

وهذه الفقرات فى جملتها لا تخرج عن الملخصات الآنفة الذكر . وقد وقف المؤلف على إسلام أسرة ابن ميمون ١٤ صفحة كاملة ؛ وهـذا الموضوع هام حقاً وجدير بهذه العناية . غير أنا لا نكاد نجد فيـه جديداً ؛ ذلك لأن المؤلف شُغِل بجمع ونقل آراء الباحثين السابقين دون أن يرجح واحداً منها على آخر ترجيحاً واضحاً . والواقع أن هذه المسألة درست من قبل دراسة موسعة ، فلم يرَ صاحب كتاب موسى بن ميمون بداً من أن ينقـل آراء من سبقوه ويعول عليها التعويل كله حتى فى مناقشة النصوص التى عرض لهـا . ولا يفوتنا أن نشير إلى أنه قد يسهب أحياناً فى سرد هـذه النصوص وينقل منها ما يجاوز بحثـه ويناقشها مناقشة سطحية . ونعتقد أنه كان فى مقدوره ، وهو ذو خبرة لغوية واسعة أن يشرح النصوص العربية شرحا أضبط ، ويستكمل ما فات المستشرقين السابقين

وفى الباب الثانى الذى هو أصغر أبواب الكتاب درست مؤلفات ابن ميمون الدينية . وهذا الباب واضح فى جملته ومحتو على ملاحظات ونقد لا بأس به ، وما اتصل فيـه بتثنية التوراة والتلمود جيد للغاية . ولا غرو فالمؤلف حين يدرس الفقه والتشريع الاسرائيلى إنما يتكلم عن خبرة تامة ومعرفة حق ؛ فهنا يبدو بجلاء اختصاصه وتمكنه من مادته . هـذا إلى أنه أحسن اختيار ما قدمه ؛ فلم يشغل القارىء العربى بتفاصيل جزئية عن الديانة اليهودية قد لا تعنيه كثيراً معرفتها .

والآن ننتقل إلى الباب الثالث الذى هو عمدة الكتاب وأكبر أبوابه ، وقد عنون له المؤلف كالآتى : « فلسفة موسى بن ميمون ومصنفه دلالة الحائرين »[1] . ويخيل إلينا أنه كان الأولى أن يكون عنوانه كما يلى : « دلالة الحائرين وما يحوى من آراء فلسفية ودينية » . فان المؤلف لم يشرح فى هذا الباب فلسفة ابن ميمون شرحاً نظرياً وتاريخياً منظماً ؛ وإنما جعل كل همه أن يلخص كتاب دلالة الحائرين وينقل أهم ما جاء فيـه من آراء وأفكار ، ويعطى فكرة عامة عن تاريخ تأليفه والأدوار التى مر بها منـذ ابن ميمون إلى اليوم ، ويبين أثره فى العالم الغربى والشرقى . ولئن فاته أن يدرس فلسفة ابن ميمون الدرس اللائق بها لقد وفق توفيقاً كبيراً فى تلخيص كتابه دلالة الحائرين ، ونستطيع أن نقرر أن هذا الملخص الذى يقع فى نحو خمسين صفحة قد يغنى عن قراءة أجزاء دلالة الحائرين الثلاثة . ولم يلخص المؤلف هـذا الكتاب بالمعنى ، بل ترك ابن ميمون يعبر فى أغلب الأحايين عن آرائه بنفسه . وفى هذا ما يسمح للقارىء أن يتصل اتصالا مباشراً بالفيلسوف المترجم له . ويجدر بنا أن نلاحظ أنا فى حاجة ماسة إلى طبع دلالة الحائرين بحروف عربية . فى انتظار هـذه الطبعة المنشودة قدم لنا الدكتور ولفنسون فصولا ممتعـة من كتاب عربى هام كتب بالعربية دون أن يعرفه كثير من أبنائها . وكل ما يؤخذ على هذا الملخص نقص فى الترتيب وربط المسائل بعضها ببعض أحيانا ، أو قصور فى عرض بعض النقط أحيانا أخرى . ففى صفحة ٥٨ يحكم المؤلف مثلا على الترجمات العربية حكما غير مبنى على أساس صحيح ، ويشير إشارة ناقصة إلى أثر الفلسفة الاسلامية فى الفلسفة اليهودية . وكنا نتوقع أن يعير هذه المسألة ما تستحق من أهمية ، ولاسيما وهو يدرس شخصية يبدو فيها الأثر الاسلامى بشكل واضح . والتاريخ والواقع يشهدان بأن الفلسفة اليهودية فى جملتها ليست إلا امتداداً للفلسفة الاسلامية . وفى صفحة ١٢١ يتكلم عن أسلوب ابن ميمون ؛ وفى رأينا أنه كان ينبغى أن يقدم هذه النقطة ويبدأ بها قبل الدخول فى تفاصيل كتاب دلالة الحائرين ؛ على أن المؤلف فاته أن يشير إلى جلاء ابن ميمون ، ووضوح لغته ، وعنايته بتوصيل المعنى إلى القارىء ، وطريقته المنطقية البرهانية فى المناقشة والتعليل

وفى الباب الرابع والأخير يدرس المؤلف كتب ابن ميمون الطبية . وهذه تكملة لا بد منها ؛ فان ابن ميمون فوق تشريعه وفلسفته كان طبيباً يشار اليه بالبنان فى علمه وعمله ، وقد خلف كتباً طبية عديدة استفاد منها الشرق والغرب أثناء القرون الوسطى . وقد نجح المؤلف فى التعريف عنها ، وعرض نماذج من موضوعاتها ؛ وإن كان قد فاته أن يبين فى وضوح الصلة بينها وبين المؤلفات الطبية العربية الأخرى المعاصرة لها أو السابقة عليها . وعل هذه الدراسة ألصق بكتاب طبى منها ببحث تاريخى

وفى الفهرس نرى مجموعة طيبة من المراجع القديمة والحديثة العربية والعبرية والافرنجية التى تتصل بحياة ابن ميمون وآرائه ومؤلفاته . ويا ليت المؤلف أضاف اليها بعض الملاحظات النقدية

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٧